﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ٦٥﴾

[الأنبياء: 65]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الـثّـبـاتُ على الحقِّ رتبةٌ فوقَ اتّباعِهِ

لَمّا كان رجوعُهم إلى الضَّلال بعد هذا الإقرار الصَّحيح الصَّريح ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في غاية البُعد، عبَّرَ بأداته مُشيرًا إلى ذلك فقال: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ﴾؛ أي: انْقلبوا في الحالِ غير مُسْتَحْيين ممّا يلزمُهم من الإقرارِ بالسَّفَه حتَّى كأنَّهم قَلَبَهم قالبٌ لم يمكِنْهم دفعَه، فصار أعلاهم أسْفَلَهم برجوعهم عن الحقِّ إلى الباطل[1]، فهذه الآيةُ ممسِكةٌ بما قبلها؛ كأنَّهما آية واحدة تذكر حالَيْن مختلفَيْن تمام الاختلاف لعنصرٍ بشريٍّ واحدٍ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُكِسُواْ﴾: (نكس) أصْلٌ يدُلُّ على قَلْبِ الشَّيء، منه النَّكسُ: قلبُكَ شيئًا على رأسِه وجعلُ أعلاه أسفلَه ومُقدَّمه مُؤخَّرَه، والولادُ المنْكوسُ: أن يخرجَ رِجْلاهُ قبلَ رأسِه[2]، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾، ومن النَّكْسِ في العُمُر، قال تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ﴾ [يس: 68][3]، قال الفرزدق:

وإذا الرِّجالُ رأوْا يزيدَ رأيتهم *** خُضَعَ الرِّقابِ نواكسَ الأبصارِ[4]

وقوله تعالى: ﴿نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾؛ أيْ: رجعوا على أمرِهم الأوَّل الشّرك باللّه بعد المعرفة والصِّدق من قول إبراهيم[5].

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 442.
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة: 10/ 71.
(3) الرّاغب، المفردات: (نكس).
(4) ديوان الفرزدق: 1/ 304، وهو من شواهد سيبويه، الكتاب: 3/ 633، والمُبرِّد، الكامل: 2/ 57 - 58.
(5) الماوردي، النُّكت والعيون: 3/ 452.

2) ﴿رُءُوسِهِمْ﴾: (رأس) أصلٌ يدلُّ على تجمُّعٍ وارتفاع، والرَّأسُ: رأسُ الإنسان وغيره، والرَّأسُ: الجماعة الضَّخمة، وجمعُه رؤوس، قال تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: 4][1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

شبَّه ﷺ عَودَةَ قوم إبراهيمَ عليه السلام - عَبَدَة الأصنام - إلى الباطل: بصيرورة أسفلِ الشَّيء بأعلاه، ثمَّ قالوا بعد أن نُكِسُوا مخاطِبين إبراهيمَ عليه السلام قائلين: لقد علمتَ أنَّ النُّطقَ ليس من شأن هذه الأصنام[2].

الانقلابُ إلى المجادَلةِ بعد الاستقامةِ بالمراجعة

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ حرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾:

أفادت ﴿ثُمَّ﴾ هنا التراخي الرُّتْبي، وقد احتاج هذا الحال معهم إلى مدَّةٍ زمنيَّةٍ هي الفاصلة في حياتهم؛ إمّا يستقيم فيها أمرُهم أو ينكُصون على أعقابِهم ويعودون إلى كفرِهم، وهذا مما يلمح إليه ﴿ثُمَّ﴾، فتكون جمعًا بين معنيَيْن باعتباريْن لا تعاند بينهما؛ كالجمع بين الحقيقة والمجاز الذي قال به كثيرٌ من كبار أهل العلم.

قد يكون استعمال حرف المعنى إيجازًا بالغًا

بلاغة التّمثيل المُرَكَّب:

ولمّا كان رجوعهم إلى الباطل بعد الدُّخول في دائرة الحقِّ بقول بعضهم لبعض: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ غريبًا عجيبًا في بابه؛ احتاج إلى التّمثيلِ لكمال توضيحه؛ فشُبِّهَ تحوُّلُ رأيهم عن الصَّواب إلى معاودةِ الضَّلال - بهيئة مَن تغيَّرت أحوالُهم من الانْتصابِ على الأرْجُل إلى الانْتصاب على الرُّؤوس منكوسين؛ ثم استُعيرت الهيئة أو الحال المُشبَّه بها للحال المُشبَّه على سبيل الاستعارة التّمثيليّة المُركَّبة؛ فهو من تمثيلِ المعقول بالمَحسوس، والمقصودُ به التَّشنيع[3].

تمثيلُ ما عليه الظّالمون من شناعة كُفرهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: والرّاغب، المُفردات: (رأس).
(2) الشَّوكاني، فتح القدير: 3/ 566.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 103 - 104.

القول بأن التنكيس حقيقيٌّ لا مجازي

ويرى الزّمخشريّ أن الكلام هنا على الحقيقة؛ أيْ: (قُلبوا على رؤوسهم حقيقةً لفرط إطراقهم خجلًا وانكسارًا وانخزالًا مِمَّا بهتهم به إبراهيم ﷺ فما أحاروا جوابًا إلا ما هو حجّة عليهم)[1]، والأعلى سياقا أنه استعارة تمثيلية لانقلابهم وارتدادهم إلى الباطل؛ فقد أبرز السياق رفضهم للحق، وصوَّر ضعف عقولهم، وتعطيلهم لوسائل الإدراك؛ إذ هم مستمسكون بفعل الآباء: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء: 53]، وما إبراهيم في اعتقادهم إلا مِن اللاعبين.

سرُّ إيثارِ الفعل ﴿نُكِسُواْ﴾ مادَّةً وصيغة:

إنما تعظُمُ المخالفةُ مع عِظَمِ الدليل

قد آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ الفعلِ ﴿نُكِسُواْ﴾ المبنيِّ للمفعول؛ أيْ: نَكَسَهم ناكِسٌ، والعجيب والغريب أن يحصل هذا النكس بغض النظر عن السبب فيه؛ كأنه لا مجال لأحد ولا لشيء أن يكون سببًا في حصوله؛ لعظيم قوة الدليل الذي أتاهم به إبراهيم ﷺ، ولمَّا كان النكس يُستعمل في التحوُّل من الحَسَن إلى القبيح، ومن الجيد إلى السيء؛ كان مِن البلاغة والتناسب التعبيرُ به هنا[2].

فائدةُ حرفِ ﴿عَلَىٰ﴾:

انكسارُ أهلِ الباطل عند وقوعِهم في مغبَّة ظُلمهم

جاء النَّظمُ الكريمُ بـ ﴿عَلَىٰ﴾ لإفادةِ الاستعلاء؛ أي: عَلَتْ أجسادُهم فوقَ رؤوسهم بأنِ انْكَبُّوا انْكبابًا شديدًا بحيث لا تبدو رؤوسُهم[3]، أو أنَّهمُ انقلبوا على رؤوسهم حقيقةً لفَرْطِ إطْراقِهم خجلًا وانْكسارًا وانْخزالًا ممّا بهتَهم به إبراهيمُ ﷺ، فما أحاروا جوابًا إلّا ما هو حُجَّة عليهم[4].

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/ 577.
(2) بسيوني فيود، روافد من نهر الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، ص: 58.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 104.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/ 577.

سرُّ استعمال ﴿رُءُوسِهِمْ﴾:

تـأكيـدُ خـذلانِ الـكَـفَـرَةِ وقُـبحِ باطلهم

لمّا كان أصلُ النَّكْسِ قلبَ الشَّيء بحيث يصيرُ أعلاه أسفلَه؛ ذَكَرَ القرآن الحكيم في الآية: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ الرأسَ مع دخوله في أصل المعنَى للتَّأكيد، وقد يُستعمل النَّكسُ لغةً في مُطلَقِ قلبِ الشَّيءِ من حالٍ إلى حالٍ أخرى، فيكون ذِكْرُ الرَّأس هنا للتَّصوير والتَّقبيح[1].

دلالة موقع ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾، وسرُّ الحذفِ، والتعبير بـ﴿لَقَدْ﴾:

مِـن شـأن أهـل الباطل التزلزل

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ جوابُ قَسَمٍ محذوف، والقَسَم وجوابُه معمولان لقولٍ مُضْمَر، وذلك القولُ المُضمَر حالٌ من المرفوع في ﴿نُكِسُواْ﴾، والتَّقدير: (نُكِسوا قائلين: تاللّه لقد علمت)[2]، ووراء حذف القول والإفصاح عن القَسَم ما يُشعر باندفاع هؤلاء الكفرة، وعدم تفكّرهم، ولذا ذكروا ما هو حُجَّة لإبراهيم عليهم، وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ﴾ نجد أنَّ (اللّام) موطِّئة للقَسَم، و(قد) حرف تحقيق، وكلاهما يُفيد التأكيدَ وتحقّقَ ما بعدهما في قوله تعالى: ﴿عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾؛ أيْ: ما أردتَ بقولك: فاسألوهم إن كانوا ينطقون إلّا التَّنصُّلَ من جريمتك[3].

بلاغةُ الخبر في: ﴿عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾:

الـخـبـرُ المـؤكَّـد باتِّصاف الأصنام بعدمِ النُّطق

الفعلُ ﴿عَلِمْتَ﴾ مُعلَّق عن العملِ لوجودِ حرف النَّفي بعدَه، فجاءت جملةُ ﴿مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ خبريَّةً لكنَّها غيرُ مجرَّدةٍ للخبر؛ بل هي تُفيد التَّأكيدَ فيما أتت من أجله؛ أيْ: تفيدُ تقويةَ الاتِّصافِ بانعدام النُّطق، وذلك بسبب انْعدامِ آلته وهي الألْسُن[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 64.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 325، والسَّمين الحلبي، الدُّرّ المصون: 8/ 179.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 104.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 104.

بلاغةُ اسمِ الإشارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

الإشارة للقريب أقـوى أدلَّـة التَّنديد

لَمّا اعْترفَ الكفّارُ بأنَّهم على باطل، كان ممّا جلَّى اعترافَهم وأظْهرَ سفاهةَ عقولهم وأسْقطَ كبرياءهمُ الفارغ، إشارتُهم لتلك الأصنامِ الآلهة المزيَّفة الحاضرة أمامهم بقولهم: ما هؤلاء؛ أيْ: ما هؤلاءِ الأصنام صحيحهم ولا جَريحهم ينطقون، فهم لا فائدةَ تُرجَى فيهم[1]، فقد واجهوا إبراهيم بما هو له - لا لهم - مِن جهة استحضارهم وتمييزهم باسم الإشارة، ومن جهة ضعفهم وعجزهم عن أن يكون منهم نطق.

سرُّ إيثار ﴿يَنطِقُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

مَنْ لا يستطيعُ النُّطقَ لا يستطيعُ الإفهام، وهو معدومُ العقل

آثرَ النَّظمُ الكريمُ الفعل ﴿يَنطِقُونَ﴾ للدَّلالة على عدم اسْتطاعةِ تلك الأصنامِ المحطَّمةِ المقهورة النَّفعَ والضُّرّ؛ فجعل ذلك ملزومًا لعدم نُطقِها؛ لأنَّ النُّطق هو واسطةُ الإفهام، ومَنْ لا يستطيعُ الإفهام مع استمرار ذلك منه - كما عبَّرت عنه صيغةُ المضارع ﴿يَنطِقُونَ﴾ - يتبيَّن أنَّه معدومُ العقلِ[2]، ثم هم أعادوا النُّطق الذي ذَكَرَه إبراهيم من قبل في قوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾؛ ليكون أقوى في استحضار أمرهم بسؤال الأصنام؛ لينبني على ذلك دوامُ معركتهم مع شخصِ إبراهيم؛ فإن في أمره استهزاءً بهم لا محالة؛ ألا ترى إلى قولهم بعدُ: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾؟.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

يشتركان في انقلاب الشّيء وعَوْدِه، والأوَّلُ يغلبُ في الأعيان، والثّاني في المعاني

النَّكس والانْتكاس:

النَّكْسُ: قلبُ الشَّيء على رأسِه، وجعلُ أعلاه أسفلَه ومقدَّمه مؤخرّه، وهو من الفعل: نَكَسَ يَنْكُسُ نَكْسًا، وانْتكاسةُ المريض:

(1) البقاعي، نظم الدُّرَر: 12/ 442.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 104.

مُعاودتُه المرض بعد أن شعرَ بشفاءٍ، وانْتكَسَ: وقع على رأسه، وانْتكسَ الغِطاءُ: انْقلب، وهو من الفعل: انْتكَسَ، ينتكِسُ، والمصدرُ انْتكاسًا، وانْتكساةً، والانْتكاسةُ: تغيُّرٌ من الجيِّدِ إلى السَّيِّئ[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (نكس).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والثلاثون،
سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 33 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-75-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 33 : المجلد الثالث والثلاثون، سورة طه من الآية 132 إلى سورة الأنبياء الآية 88.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-75-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1130605 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»